بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الجزيرة- معهد إسلام المعرفة (إمام)
بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم(2018م)

أصول الظاهرة الاجتماعية وأصول المقاصد الشرعية في القرآن الكريم

1- المقدمة

يتأسس أي مجتمع إنساني متحيز في الزمان والمكان على ثلاثة نظم ضرورية، هي: النظام المعرفي، النظام العقدي والنظام المجتمعي التطبيقي (تربوي، اجتماعي، اقتصادي، سياسي، ثقافي...إلخ). هذه النظم لابد أن تكون متسقة داخليا وفيما بينها، فالنظام المعرفي يؤسس للرؤية الوجودية الكلية التي تجيب عن أسئلة جوهرية ثلاثة؛ أولها سؤال **ماذا هناك**، أي على ماذا يحتوي هذا الوجود؟ هل هناك خالق وخلق؟ ماهي طبيعة هذا الخالق، وماهي طبيعة خلقه؟ ماهي العلاقة بين الخالق والخلق؟ أو، ربما ليس هناك خالق، فمن أين جاء هذا الكون إذن، ومم يتكون؟ من هو الإنسان؟ من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب بعد الموت؟ ما هي علاقته بهذا الكون؟ من أين يستمد قيمه ومعاييره التي بها يفعل ويتفاعل؟ السؤال الثاني في النظام المعرفي يتعلق **بماذا نعلم**، أي ما هو العلم الذي يمكن تحصيله عن الوجود الذي حددته الرؤية الوجودية الكلية؟ السؤال الثالث بالطبع يتعلق **بكيف نعلم**، وهو السؤال المنهجي، أي كيف نتحصل على العلم عن الوجود الذي تم اعتماده كرؤية للعالم.

كل إنسان، وكل مجتمع يستبطن بالضرورة إجابات من نوع ما عن الأسئلة أعلاه التي يطرحها النظام المعرفي، سواء كان هذا الاستبطان عن وعي، أو دون وعي، لأن الحياة تستحيل دون ذلك. لكل فرد ولكل مجتمع أصوله التي تمده بإجابات لهذه الأسئلة التي يطرحها النظام المعرفي، فقد تكون تلك الأصول عبارة عن حكايات تراثية أسطورية تتوارث عبر الأجيال، لا يسأل أحد عن مدى الحق الذي فيها، بل يتم تلقيها بالقبول والإذعان، ويتأسس عليها النظام العقدي، أي ما يؤمن به الأفراد والمجتمع، وعلى النظامين معا ينشأ ويستمر نظام المجتمع في الزمان والمكان. وقد تكون الأصول التي يأوي الفرد والمجتمع إلى إجاباتها عن تلكم الأسئلة الوجودية هي أديان مهيمنة أسلم الناس لها القياد، طوعا، أو كرها. وقد تكون الأصول فلسفات وجودية، مادية أو غير مادية، تدعي العلمية، وتنتهج مناهج البحث العلمي المنظم للوصول إلى إجابات يتوفر لها قدر من الصدقية العلمية بمقدار اقتراب، أو ابتعاد تلك الفلسفات الوجودية عن الحق الذي يتأسس عليه الوجود. وقد تكون الأصول هي كتاب يدعي أصحابه أنه وحي يوحى من الموجود الأعظم، خالق السماوات والأرض وما بينهما.

الرؤية الوجودية الكلية التي يمد النظام المعرفي بها المجتمع، أيا كان مقدار الحق الذي فيها، يبني عليها الأفراد والمجتمع نظامهم العقدي الذي يحدد ما يؤمن به وما لا يؤمن به الفرد والمجتمع، وما هو حلال وما هو حرام...إلخ. ومن هذين النظامين ينشأ الواقع المجتمعي الذي يتدافع فيه الناس فعلا وتفاعلا، ويتم عمران الأرض جلبا للمصالح ودفعا للمفاسد، ويتحقق الصلاح والفلاح للناس، واستدامة ذلك بمقدار الحق الذي تتأسس عليه هذه النظم الكلية الثلاثة. هكذا يتبين الدور الحاسم للنظام المعرفي، ولأصوله التي يتأسس عليها في قيام المجتمعات، وبقائها وصلاحها واستدامة هذا البقاء والصلاح.

هذه الورقة الإطارية معنية بتحديد الأصول الكلية التي ينشأ منها ويتأسس عليها الاجتماع الإنساني، أو الظاهرة الاجتماعية بتعبير آخر، بحسب اجتهاد الباحث في فهم التصور القرآني

للعالم (رؤية العالم)، معتمدين في ذلك على قراءة معرفية في نصوص الوحي، ثم في إطار رؤية القرآن الكريم لعالم الاجتماع الإنساني في كليّته نحدد أصول الاجتماع التوحيدي، لننتقل بعد ذلك إلى استخلاص الأصول الكلية للمقاصد الشرعية من أصول الاجتماع التوحيدي. ونقصد بالاجتماع الإنساني، أو بالظاهرة الاجتماعية، مجموع التمظهرات المجتمعية، فردية وجمعية، الناجمة عن التدافع البشري في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا، ونيل حظوظهم من متاعها. وسوف تتبين أبعاد هذا التعريف فيما يلي من صفحات إن شاء الله تعالى.

2- التصور القرآني لأصول الاجتماع الإنساني

1.2- المدخل المنهجي ويمكن تأسيسه على الآتي:

1.1.2- نزول القرآن منجماً

نزل القرآن منجماً (متفرقاً)، آيات وسوراً، على الظاهرة الاجتماعية في تمظهراتها المختلفة عبر مكان هو الجزيرة العربية، وعبر زمانٍ جاوز العشرين عاماً من أوائل القرن السابع الميلادي، حتى إذا توحدت متفرقات هذه الظاهرة في إطار دين التوحيد كمُل الدين الموحى (الشريعة)، وصارت الشريعة بذلك هي المثال الديني المنزل وحيا، الواجب الاتباع إلى قيام الساعة لإقامة الدين الكسب في الواقع الاجتماعي الظرفي: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية، 18). كذلك كمُل دين المسلمين المقام في العهد النبوي باتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن تاب معه للشريعة الموحاة في تأسيس بنيان دينهم في الواقع الاجتماعي العربي الظرفي، وصار هذا البنيان الديني النبوي هو النموذج المعياري، وخارطة الطريق الملزمة لكل من أراد أن يشيد بنيان دينه في الزمان والمكان على هدي الشريعة الموحاة إلى قيام الساعة: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ١١٢﴾ (هود)؛ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ٣٢﴾ (آل عمران)؛ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ١٣﴾ (الشورى)؛ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3)﴾ (المائدة).

هكذا أكمل الله تعالى الدين شريعة متبعة، وواقعا اجتماعيا ملتزما في بنيانه بهديها، شرعة ومنهاجا، وأعيد ترتيب ما نزل متفرقاً من آيات القرآن الكريم ترتيباً توقيفياً، فتوحدت جميعها لتصير هي الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت، وهو القرآن الكريم في كتاب مكنون، وهو القرآن المجيد في لوح محفوظ. وقد أثبت العلماء لهذا الكتاب خواص أساسية منها: وحدته البنائية؛ وحدته الموضوعية؛ إطلاق معانيه؛ عالميته؛ شموله؛ خلوده؛ وتصديقه وهيمنته على الكتب السماوية التي سبقته[1].

النتيجة المنهجية الأولى التي نرتبها على ما سبق، هي أن ما ثبت من خواص معرفية للقرآن الكريم لابد أن يكون لها ما يعادلها من خواص وجودية في الظاهرة الاجتماعية التي تنزّل عليها متفرقاً لتفرقها، حتى إذا توحدت شرعة ومنهاجاً توحدت آيات القرآن كتاباً. فهو بهذا المعنى معادل لها معرفياً، ويشمل ذلك تفاعلها مع محيطها الوجودي في عالمي الغيب والشهادة. سوف نرى أن الوحدة البنائية للقرآن الكريم تبرز وحدة بنائية مكافئة في الظاهرة الاجتماعية، حيث لها

[1] - محمد أبو القاسم حاج حمد (1435هـ- 2004م): إبستمولوجية المعرفة الكونية (إسلامية المعرفة والمنهج)؛ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ومركز دراسات فلسفة الدين في بغداد.

متغيرات (بالمعنى الرياضي) كونية هي أصولها التي من تفاعلها فيما بينها، ثم فيما بينها وبين الفعل الإلهي المصدّق والمهيمن، تتولد جميع تمظهرات هذه الظاهرة في الزمان والمكان. وسوف يتضح لنا أن هذه المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية هي نفسها الأصول التي بنيت عليها المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. كذلك فإن التفاعلات الكلية بين هذه المتغيرات تقابلها تماماً التقسيمات الكلية المعهودة لأحكام الشريعة الإسلامية.

سوف يتضح من التحليل النظري أن عالمية القرآن الكريم وخلوده تستمد مشروعيتها العملية من عالمية هذه المتغيرات الحاكمة للظاهرة الاجتماعية، من حيث أنها هي المسؤولة عن هذه الظاهرة أينما وجدت في الزمان والمكان، وأن القرآن الكريم بُني حولها في تفاعلها الداخلي، وفيما بينها وبين محيطها الوجودي في عالمي الغيب والشهادة. لهذا كان القرآن الكريم للناس كافة، بشيراً ونذيراً، وأنه يهدي للتي هي أقوم إلى قيام الساعة.

النتيجة المنهجية الثانية لتنجيم القرآن هي أن تنزله تاريخياً على الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة في الزمان والمكان، مع اتصافه بالخلود والعالمية، يعني بالضرورة أن تلك الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة تقوم على متغيرات أساسية تشترك فيها مع أي ظاهرة اجتماعية أخرى، في أي زمان ومكان، ومن ثم تتنزل عليها الشريعة الموحاة بمقتضى خواص الخلود والعالمية والاستيعاب. ومن البديهي أن يبحث عن هذه المقومات الأساسية المشتركة للظاهرة الاجتماعية في القرآن الكريم الذي يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها في كل الأحوال.

2.1.2- الزوجية في الحياة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)﴾ (النساء)، يفيد أن الظاهرة الاجتماعية، في كلياتها وتفاصيلها غير المتناهية، إنما انبثقت في مبتدئها من تفاعل بين زوجين بشريين اثنين (ذكر، أنثى) فقط، وبينهما وبين البيئة الخارجية التي وجدا فيها، إذ إن كلمة بثّ تفيد الانتشار المجتمعي، وليس مجرد التناكح والتناسل. لابد إذن من أن تكون الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية قادرة على أن تفسّر كيف تم هذا البث من تفاعل بين زوجين أثنين فقط، وبينهما وبين بيئة خارجية مناسبة، وما هي السنن الضامنة لهذا البث في تمظهراته المختلفة عبر الزمان والمكان.

3.1.2- مقاصد الشريعة الإسلامية

أكد علماء الشريعة أن الشريعة الإسلامية تدور أحكامها جميعاً حول حفظ الضروريات الخمس: (الدين؛ النفس؛ العقل؛ النسل؛ المال). إن المعلوم من الدين بالضرورة أن الشريعة الإسلامية تحيط بالظاهرة الاجتماعية في جميع تفاصيلها وتمظهراتها، في كل زمان ومكان، إدخالا لشعاب الحياة المتجددة أبداً في دين التوحيد. نستنتج من ذلك أن ضبط الأحكام الشرعية لجزئيات الظاهرة الاجتماعية إنما القصد منه حفظ الكليات الخمس بحيث تبقى على الدوام في مسار التوحيد. سوف يتبين لنا من خلال بسطنا لنظرية الظاهرة الاجتماعية المستمدة من القرآن الكريم أن ما اتفق عليه علماء الشريعة من كليات خمس عليها مدار الشريعة، مع إبدال منهجي لـ"الإيمان" بـ"الدين"، و"العلم " بـ"العقل"، إنما هي في حقيقة الأمر المتغيرات (بالمعنى الرياضي) الضرورية التي تتفاعل فيما بينها لإنتاج النظام الاجتماعي التوحيدي، عبر الزمان والمكان، أي الذي يدخل بجميع تمظهراته في السلم، وهذا هو مراد الشارع من وضع الشريعة. لكن إذا أضفنا إلى المتغيرات الخمسة أعلاه متغيري "متاع الحياة الدنيا" و"الهوى" أمكننا تفسير الظاهرة

الاجتماعية في جميع تمظهراتها، أي في حالة دخولها في السلم كافة(التوحيد)، وفي حالة خروجها من السلم كافة(الكفر)، وما بينهما(الشرك).

4.1.2 الخلق

قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾ (الروم)، يدل على أن الدين الحق، بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان، وأحكامه التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة (الخلقة) البشرية التي فطر (خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتمظهراتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة(الخلقة) البشرية كما جاءت في القرآن الكريم؟ وما هي تمظهراتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)﴾ (الصافات)، ثم كيف يكون المثال الديني الموحى (قرآن، سنة)، وهو علم، معادلاً في حقيقته وأحكامه لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

أولاً؛ ثنائية الخلق من الطين من عالم الخلق، والروح المغايرة للطين من عالم الأمر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)﴾ (الحجر)؛ ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)﴾ (ص)؛ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا٨٥﴾ (الإسراء).

ثانياً؛ ثنائية في خواص النفس البشرية المنبثقة من تفاعل الجسد والروح من حيث إلهامها **فجورها** و**تقواها**: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)﴾ (الشمس). ملهمات الفجور في النفس تمثلت في خواص فطرية مثل **الشح**: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ **الشُّحَّ** (128)﴾ (النساء)؛ و**الهلع**: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ **هَلُوعًا** (19)﴾(المعارج)؛ و**الضعف**:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ **ضَعِيفًا** (28)﴾ (النساء)؛ و**العجلة**: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ **عَجَلٍ** سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)﴾ (الأنبياء)، و**القتر**: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ **قَتُورًا** (100)﴾ (الإسراء). وهناك خواص سالبة أخرى تتركب وتتفرع عن هذه الخواص الفطرية عندما يتفاعل الإنسان بها مع ابتلاءات الحياة المتنوعة والمتجددة، منها **البخل**: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ **بِالْبُخْلِ** وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (37)﴾ (النساء)؛ و**الكبر**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا **كِبْرٌ** مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) ﴾(غافر)؛ و**الحسد**: ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا **حَسَدَ** (5) ﴾ (الفلق)...إلخ.

ملهمات التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من ملهمات الفجور. وملهمات التقوى هي الخواص الإلهية التي حملتها الروح إلى الجسد الطيني الذي تمت تسويته وتم نفخها فيه، وأصبحت من ثم من الخواص المكتسبة للنفس المنبثقة من التفاعل بينهما. فالروح هي مستودع الخواص الإلهية التي خُلقت خلقا يناسب خلق الإنسان ومهمته الاستخلافية، ومثال ذلك خاصية "الرحمة" كما ورد في الحديث الصحيح عند البخاري: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَومَ خَلَقَها مِئَةَ رَحْمَةٍ، فأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً، وأَرْسَلَ في خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً واحِدَةً، فلوْ يَعْلَمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ

يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذابِ لَمْ يَأْمَن مِنَ النَّارِ). وهذه الخواص الإلهية هي مطلقة عند الله تعالى ولكنها نسبية عند الإنسان، ولكل إنسان كسبه النسبي من تلك الخواص الإلهية، فإن شاء فعّلها ليترقى في سلّم الكمال الأخلاقي، وإن شاء صعد بها مدارج السالكين إلى الله تعالى ليكون ربانيا، وإن شاء طوعها لأغراض الدنيا فقط وصار من المحجوبين. ومن ملهمات التقوى: الرحمة، الرأفة، العلم؛ الإيمان؛ الصبر؛ العدل؛ الإحسان؛ الصدق؛ الأمانة؛ الحلم؛ العزة؛ الجبرة...إلخ. وقد بلغ الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، السقف البشري من الخلق الإلهي، فقد كان خلقه القرآن، لذلك كان رحمة للعالمين.

ثالثاً؛ من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة خاصية كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خواص السمع والبصر والفؤاد: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) ﴾ (النحل). ولكن للإنسان أيضا القدرة على كسب الجهل، وترتكز هذه الخاصية على فطرة الفجور في النفس: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)﴾ (الفرقان)؛ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)﴾ (الأعراف)؛ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)﴾ (يوسف)؛ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ٢٣﴾ (الأحقاف).

رابعاً؛ زيّن للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)﴾(طه)، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمنا ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.

خامساً؛ أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29)﴾ (الكهف)، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾(النحل).

سادساً؛ جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأى بجانبه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ (67) ﴾(الإسراء)، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ﴾ (النحل)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)﴾(الأعراف)، ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) ﴾(يونس). لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط الفطري بالغيب.

نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى **نتيجة** نفصلها لاحقا، ومفادها الآتي:

الظاهرة الاجتماعية بجميع مظاهرها في الزمان والمكان إنما هي التمظهرات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفا مع كليات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، والفعل الإلهي المصدق والمهيمن على هذا التفاعل.

إذن قول الله تعالى إن الدين القيّم هو هذه الفطرة التي فطر الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أن الوحي يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها في كل زمان ومكان، حيث يبيّن القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسّر ظواهر الفطرة في عالم الشهادة "خطة الخلق العامة"[2] وتمظهراتها عبر التاريخ، ثم يبيّن مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم، المبني على أصول التقوى في النفس إيمانا، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا(المال والبنون) ميدانا للابتلاء، ومضمارا للتنافس على العمل الصالح، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس كفرا، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا(المال والبنون) سعياً في الأرض فساداً: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾ (الأنعام)؛ وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) ﴾ (الأنعام). كل ذلك حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظلاّمٍ للعبيد.

سابعاً؛ نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقى من الوحي الكريم، كما أن السنن الاجتماعية، الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والفعل الإلهي المصدق والمهيمن على هذا التفاعل، والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي، لا يمكن أن تتعارض مع أحكام الوحي المتعلقة بهذه الظاهرة، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لحكمة التشريع الإسلامي وعلله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما القوانين الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.
لعل من المناسب هنا أن نذكر تعريفنا للسنة الاجتماعية الذي توصلنا إليه في بحث آخر[3]:

" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي" .

2.2- خطة الخلق العامة

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعا له، وتحميله تكليفا أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن

[2] - أنظر الصفحات التالية لمعرفة مضمون هذا المصطلح

[3] - أنظر مؤلف الباحث بعنوان: العلم والمعرفة بين رؤيتين للعالم؛ إمام (2016م)، جامعة الجزيرة، السودان.

منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن "خطة الخلق العامة" هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض قد تم اختبارها في الملأ الأعلى بمشاركة جميع الأطراف المعنية: الخالق سبحانه، الملائكة، البشر ممثلين في آدم وحواء عليهما السلام، والجن ممثلين في إبليس. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي ل"خطة الخلق العامة" على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي لخطة الخلق العامة هذه وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه (رؤية القرآن للعالم) هو مبدأ التوحيد: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ (الإخلاص)، فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن "السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي"؛ وهو الذي قال "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده". وهو الذي خلق الإنسان من الأرض، وفيها يعيده، ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى مآلات أمور الناس في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) ﴾(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية (خطة الخلق العامة) على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾ (الذاريات). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) ﴾(البقرة)؛ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) ﴾ (الأعراف).

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله، ومن ثم استخلافه على الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)﴾ (الإسراء)؛ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30) ﴾ (البقرة). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استُخلِف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخْلِف "الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ (الحجرات)؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) ﴾ (النساء).

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (61) ﴾ (هود).

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (2) ﴾ (الملك). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) ﴾ (الكهف).

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "المال"(موارد: معدنية، زراعية، حيوانية- تتحول في مجموعها إلى سلع ونقود بسبب القيمة المضافة بما عملته يد الإنسان فيها)، و"البنون"(علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة، ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (46) ﴾ (الكهف).

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين حب ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (14) ﴾ (آل عمران).

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي المال والبنين، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً، أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) ﴾ (الإنسان)، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (7) ﴾ (الزمر).

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم(السمع، البصر، الفؤاد)، وتوظيفه في الكون كفراً، أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) ﴾ (النحل)؛ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾((العلق)؛ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) ﴾ (الشمس). ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بملهمات التقوى الموجبة (العلم، الإيمان، الشكر، الصبر، الرحمة، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق...إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بملهمات الفجور السالبة (الشح، الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الحسد...إلخ) فيكون كافراً: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29) ﴾ (الكهف).

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي: علم، إيمان، عمل صالح:

(1) - علم بأمر المنعم (الله تعالى)، وعلم بالمنعم عليه (الإنسان)، وعلم بالنعمة (المال، البنون) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه.

(2) - إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله، وإحساس بالمنّة وتمني الخير للآخرين.

(3) - العمل الصالح الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه العلم بسنة الشكر: (لئن شكرتم لأزيدنكم) (إبراهيم، 7). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق ما شرع الله من أحكام.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي[4] للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده الجسدي الحيوي وبعده الروحي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34) ﴾(لقمان). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المرئي الساري في الجسد الطيني المرئي كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) ﴾ (الزمر).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (46) ﴾(الكهف)، وهي علاقة (رجل– امرأة- أبناء- أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء والأحفاد، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل: 72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149)﴾ (الصافات).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة، ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل مضامين حقله الدلالي كما في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) ﴾ (آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، وذات حقول دلالية محددة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما سيتبين أدناه.

النفس في القرآن الكريم غير الروح، فقد سكت القرآن الكريم عن الحديث في شأن الروح باعتبارها من أمر الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) ﴾ (الإسراء)؛ ولكنه بيّن لنا ما يكفي عن النفس وتسويتها، وخواصها ودورها في حياة الإنسان، وما هو مطلوب من الإنسان بشأنها. كذلك فإن الخطاب القرآني يوجه دائما إلى النفس باعتبارها مدار التكليف في الدنيا، والمستهدفة بالموت انتقالا منها، وبالجزاء في الدار الآخرة. وفي بحث لنا قادم إن شاء الله تعالى نبين فيه أن الروح هي مستودع ملهمات التقوى من الصفات الإلهية التي ذكرتها سابقا، وهي التي تُكسب وتُمد النفس بما يناسبها من تلك الصفات، والنفس

---

[4]- (ويرى جورج مونان أنَّ الحقل الدلالي هو "مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهوم عام يحدّد الحقل"، أي إنّه مجموع الكلمات التي تترابط فيما بينها من حيث التقارب الدلالي، ويجمعها مفهوم عام تظلّ متصلة ومقترنة به، ولا تفهم إلاَّ في ضوئه. والحقل الدلالي يتكوّن من مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميّز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة، وبذلك تكتسب الكلمة معناها في علاقاتها بالكلمات الأخرى، لأنَّ الكلمة لا معنى لها بمفردها، بل إنَّ معناها يتحدّد ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة واحدة.)(أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية؛ الدكتور احمد عزوز؛ منشورات إتحاد الكتاب العرب؛ دمشق- 2002م).

من جانبها تتخلّق وتحدد الكيفية التي توظف بها تلك الصفات الإلهية بحسب أحوالها من فجور وتقوى، وهي تتقلب في ابتلاء زينة الحياة الدنيا (المال والبنون). فبنفخة الروح الإلهية صار للإنسان حظ نسبي من الصفات الإلهية، وبه صار خلقا آخر مفضّل على كثير ممن خلق الله تعالى، ولكنه حظ موجود بالقوة في الإنسان، أما وجوده بالفعل فيعتمد على كسب الإنسان في الإيمان بالله تعالى، ومقتضى ذلك الإيمان من تزكية للنفس. لذلك فإن الإنسان الذي يكاد ينعدم فيه تأثير الروح الإلهي بسبب كفره بالله تعالى يعود إلى أصله الطيني المشترك مع الحيوان، ويصير كالأنعام، وقد صدّق ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) ﴾ (الاعراف)؛ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) ﴾ (الفرقان)؛ ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) ﴾ (محمد).

إذن الروح هي التي تعطي الإنسان حظّه النسبي من الصفات الإلهية، التي هي ملهمات التقوى (الإيمان، العلم، الرحمة، العدل، الإحسان، الصدق، البر، الكبرياء، الهيمنة، العزة، الجبرة، القهر، المغفرة...إلخ) ما جعله يتميز عن باقي المخلوقات، واستحق بها التكريم وسجود الملائكة له، والاستخلاف.

ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: أولا؛ ثنائية الخلق الطيني، والروح الإلهية المنفوخة في البشر الطيني بعد تسويته، ثانيا؛ الثنائية الطينية حيث البدن المرئي للحواس، والنفس غير المرئية السارية فيه، ثالثا؛ ثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها. فالثنائية الثانية أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد، وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس، وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوِقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية، ولابد من إشباعها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وضمان استمرار النوع البشري، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. وهي أولى العمليات "المكنزمات" التي يؤدي تفاعلها فيما بينها، ومع عمليات في مستوى أعلى منها إلى إيجاد المجتمعات البشرية ونظمها الاجتماعية. لذلك كانت "النفس"، و"المال"، و"البنون" من الأصول الكليّة لمقاصد الشريعة الإسلامية، وحفظها والمنافع المتأتية منها على المستوى الضروري، والحاجي، والتحسيني مقصد شرعي لأنه يتعلق به حفظ النوع البشري على الأرض.

الدوافع النفسية مثل الضعف، العجلة، الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، الشكر، الصبر، العدل، الإحسان، الرحمة...إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي العمليات النفسية فوق العمليات الحيوية التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض، وتحصيلهم لزينة الحياة الدنيا، ونيل حظوظهم من شهواتها، ومن ثم تحقيق مغزى الاستخلاف، دنيويا كان أم توحيديا.

فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1/ "العلم بظاهر من الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم (السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق في عالم الشهادة.

2/ "الهوى"، الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين". و"*جميع إطلاقات الهوى في الاصطلاح ترجع إلى ميل النفس إلى مشتهاها، إن كانت الذات، أو الخالق، أو المحبوبة.... الخ، فجميعها ميل إلى المحبوب...وأكثر الروايات عن السلف أن الله تعالى ما ذكر (هوى) في القرآن إلا ذمّه، كذلك هي جميع الآيات باستثناء آية واحدة، وهي قوله تعالى: (ومن أَضلُّ ممن اتَّبع هواه بِغَيرِ هدى من الله) (القصص: 50)؛ فقد قيده بأنه هوى بغير هدى، فأشار إلى أنه يمكن للهوى أن يوافق الهدى، والله تعالى أعلم*".[5]

ويقول الدكتور حسن الترابي: "*الهوى هو جماع الميول الفطرية التي تتجه بالإنسان إلى متاع الحياة الدنيا، فإذا طاوعه واتبع دواعيه أوقعه في أسر اللذات الأرضية المحسوسة حتى يصبح كل همه في أن يأكل ويتمتع كشأن البهائم، وحتى يذبل عنصره الروحي، وينبتّ الحبل بينه وبين عالم الغيب. ولا يزال الهوى بصاحبه حتى يبطل سر كرامته على سائر الأشياء، ويعطل تعلقاته العلوية من فرط شغله بالشهوة السفلية، بل حتى يغضي بصيرته جميعا فلا يرى إلا ما تحت قدميه، ولا يعنى إلا بالقريب العاجل، لا ينظر في حياته لمآلاتها البعيدة، ولا يقدم شيئا لآجلته. وما دام عبدٌ الهوى أعماه في دنياه يأخذ منها كيفما اتفق عاجلا بعاجل، ولا يخط لها تدبيرا، أو نهجا شاملا، فأولى أن يغفل جملة واحدة عن آخرته.*" أه.[6]

لما كان "العلم بظاهر من الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي علم الخبر(الوحي) من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي" الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحفظ الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وملهمات التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وملهمات الفجور فيتحقق بذلك الكفر به تعالى. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول عن نشأة المجتمعات، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة الجنس أدت إلى سكن الرجل إلى المرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة، وهذا هو المدخل الأول لابتلاء "البنين" في زينة الحياة الدنيا. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة، وهذا هو المدخل الأول لابتلاء "المال" في زينة الحياة الدنيا. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي"، أو "الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها، وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة

---

[5]- الهوى: دراسة موضوعية للمصطلح القرآني؛ محسن سميح الخالدي (دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 37العدد 2010).

[6] - الإيمان وأثره في حياة الإنسان؛ حسن الترابي. الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت؛ ط 3؛ 1430هـ-2009م).

من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما يثور فيها الهوى عندما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس "مكنزمات" الابتلاء، ونعني بها ملهمات الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة النفسية لا الضرورة والحاجة الحيوية الجسدية. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ دوافع الهوى السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم، ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى لسان(لغة) للتواصل بين أفراده، وإلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه، وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات، وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية الثلاثة للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً، والسنن الإلهية الحاكمة له.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل مقاصد وأحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و "لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة، إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في علاقتها بزينة الحياة الدنيا: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23) ﴾ (النجم)؛ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) ﴾ (المدثر).

إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: ﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾ (إبراهيم: 7)؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) ﴾ (البقرة)؛ ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147) (النساء). ولكن ملهمات الفجور السالبة التي هي فطرة في النفس البشرية (الضعف، العجلة، الهلع، الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد...إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) (هود).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله تعالى حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ **الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (16) **وَالْآَخِرَةُ** خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) ﴾ (الأعلى)؛ ﴿ وَمَا **الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ **وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ** خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) ﴾ (الأنعام) ؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ **حَرْثَ الْآَخِرَةِ** نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ **حَرْثَ الدُّنْيَا** نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي **الْآَخِرَةِ** مِنْ نَصِيبٍ (20) (الشورى).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)﴾ (المؤمنون)؛ أو قال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) ﴾ (صّ)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) ﴾ (الحديد).

أما من قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) ﴾ (البقرة)؛ أو قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) ﴾ (غافر)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بالله تعالى بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) ﴾ (الحديد)، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) ﴾ (القصص)؛ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) ﴾ (المؤمنون).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شيئ حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم (ﷺ) بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته الربانية في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون تعظيم "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي للمؤمن الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في تعظيم العمل الصالح المتحقق بالتفاعل بين الأصول الكلية للظاهرة الاجتماعية التوحيدية (النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد (الدين المُقام) الذي يدخل بجميع تمظهراته، الفردية والجمعية، في السلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) ﴾ (البقرة). وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾((العصر)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (33) ﴾ (الإسراء)؛ و"البنين": ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) ﴾ (الأسراء)؛ و"المال": ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188) ﴾ (البقرة)؛ و"العلم": ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾ (الإسراء). كذلك تم التأكيد على حفظ مجتمع التوحيد (الدين المُقام) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) (البقرة). ونقصد بالحفظ الإيجاد ابتداءً ثم التنمية المؤدية إلى الزيادة، أو المانعة من النقصان، وما لا يمكن حفظه لا يمكن تنميته وتعظيمه.

إن العلاقة بين "الإيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، الذي يؤدي بدوره إلى تعظيم الإيمان بوجهيه، العقدي (التوحيد)، والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، وتفاعلاتها في حياة الفرد المؤمن، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد(الدين المُقام) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته هذه، وحفظ ميزان التفاعل بينها على مستوى الجماعة المؤمنة على الدوام، وهو، في رأي الباحث، معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ (التوبة)؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾ (الأنعام). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول الكلية هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي"، أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد المتمثلة في أفعال وأعمال المكلفين (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) الملتزمة بالأحكام الشرعية (واجبات، مندوبات، مباحات، مكروهات، محرمات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من ملهمات التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من ملهمات الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) "مكنزمات" لتزكية النفس من "الهوى" الذي هو حب الشهوات من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، وتمكيناً "للعلم" و"الإيمان" الهاديين إلى العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا (المال، البنون). وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح...إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظّم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعزيرا، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود (الله تعالى)، أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف (الله تعالى) من قِبَل المستخَلف (الإنسان) فيما استُخلِف فيه (الأرض). وهذا، في رأي الباحث، معنى الحديث الشريف المشهور "بني الإسلام على خمس". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية، مقاصد ووسائل، هي الميزان الذي يزن التفاعل بين المتغيرات التي هى أصول الاجتماع الإنساني (الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط، أو إخساره: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (25)﴾ (الحديد)؛ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)﴾ (الرحمن).

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية للعالم تتباين في تأسيس الفعل والتفاعل الاجتماعي في التعامل مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان فيها. وتنطوي كل من هاتين الرؤيتين الكونيتين على نظم وجودية، ومعرفية ومنهجية ترتب في إطارها المشاهدات الحسية،

وتختمر في بوتقتها التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونها، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية وغيرها التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية وغيرها المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم تأتي الاستجابة الحياتية، الفردية والجمعية.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا وجودية ومعرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والمحلية تجاهها من خلال رؤية العالم الدنيوية المنبثقة من خيار "الحياة الدنيا" الذي بين القرآن الكريم خصائصه المذكورة أعلاه، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة المتعولمة، والمهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة، وشركات ومؤسسات، ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور القرآني بتلخيصه في رؤية قرآنية للعالم يجسمها الرسم البياني في الشكل رقم (1) أدناه، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية القرآن للعالم هذه الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلى الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التمظهرات التاريخية لرؤية العالم التوحيدية، أو تلك الناجمة عن التمظهرات التاريخية لرؤية العالم الدنيوية. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم مقاصد الشريعة الإسلامية في إطار رؤية العالم التوحيدية، أو على تعظيم مقاصد المتاع الدنيوي في إطار رؤية العالم الدنيوية.

إن هذه الرؤية القرآنية الكلية لعالَم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، رؤية عالَم الاجتماع التوحيدي الذي يمثله عمود الصناديق في أقصى يمين الرسم، ورؤية عالم الاجتماع الدنيوي الذي يمثله عمود الصناديق في أقصى يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كِلا الرؤيتين.

شكل (1)

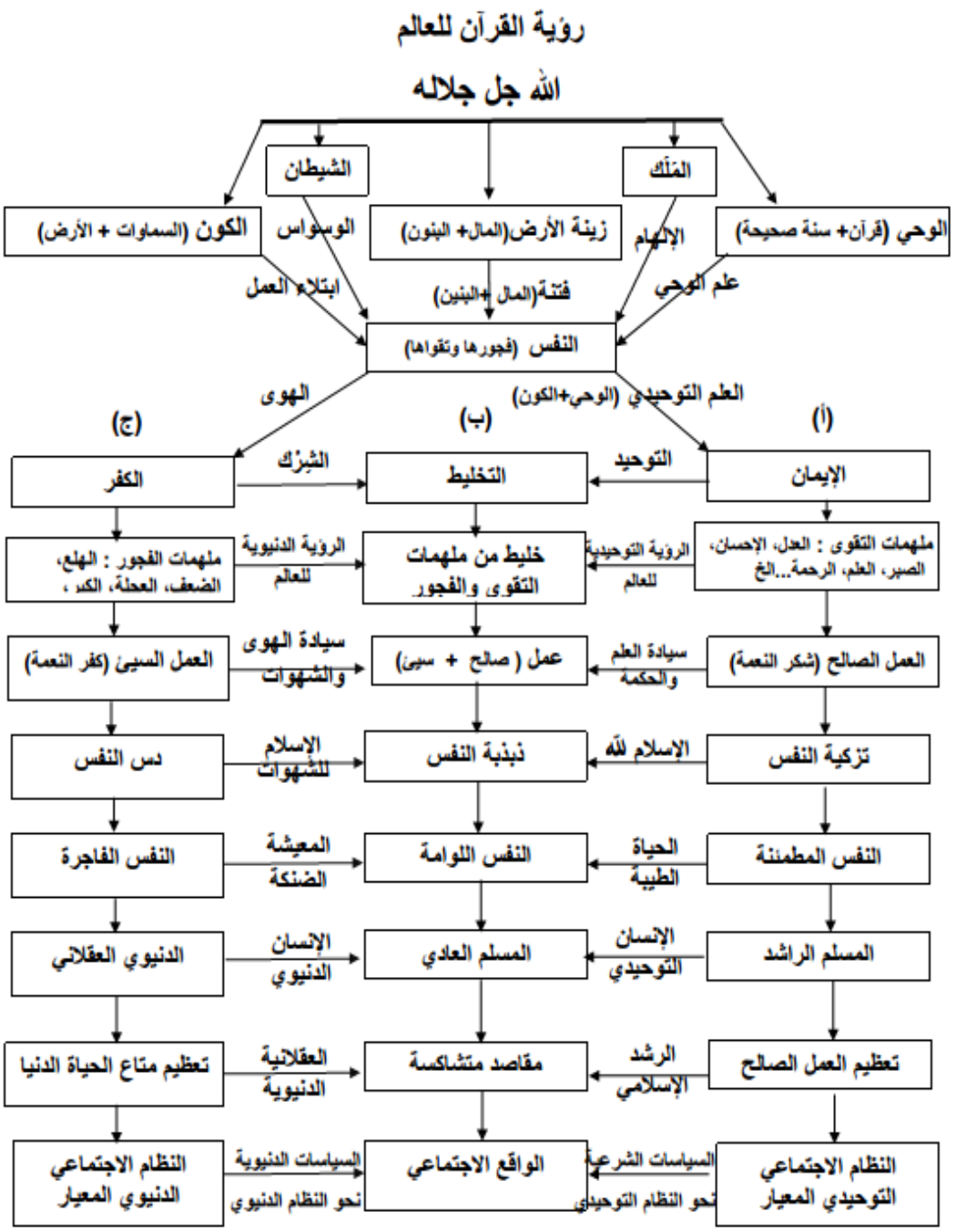

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم /معهد إسلام المعرفة (إمام) /
جامعة الجزيرة
mbiraima@gmail.com

شكل (2)

نظام الاجتماع التوحيدي

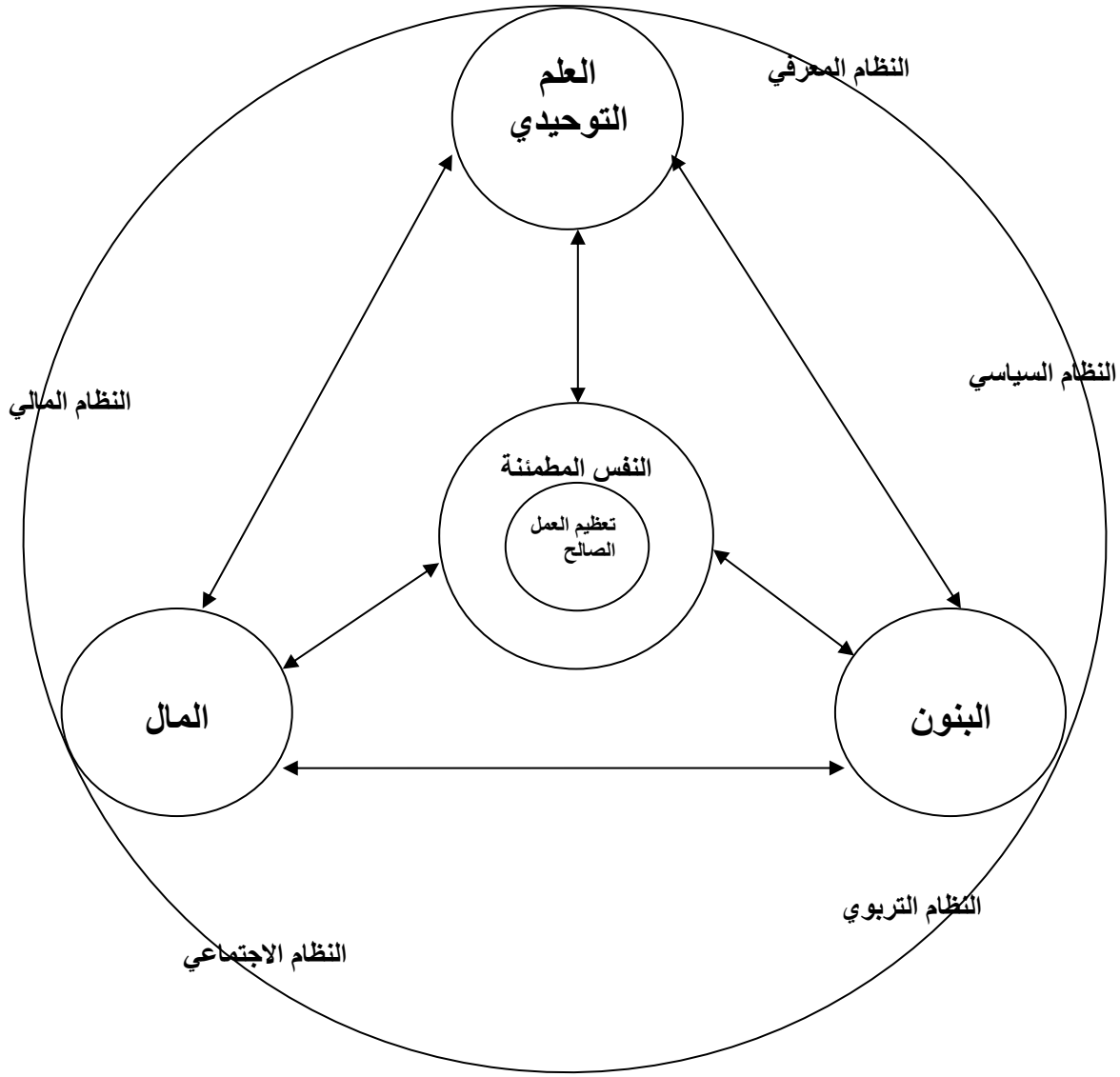

شكل (3)

نظام الاجتماع الدنيوي

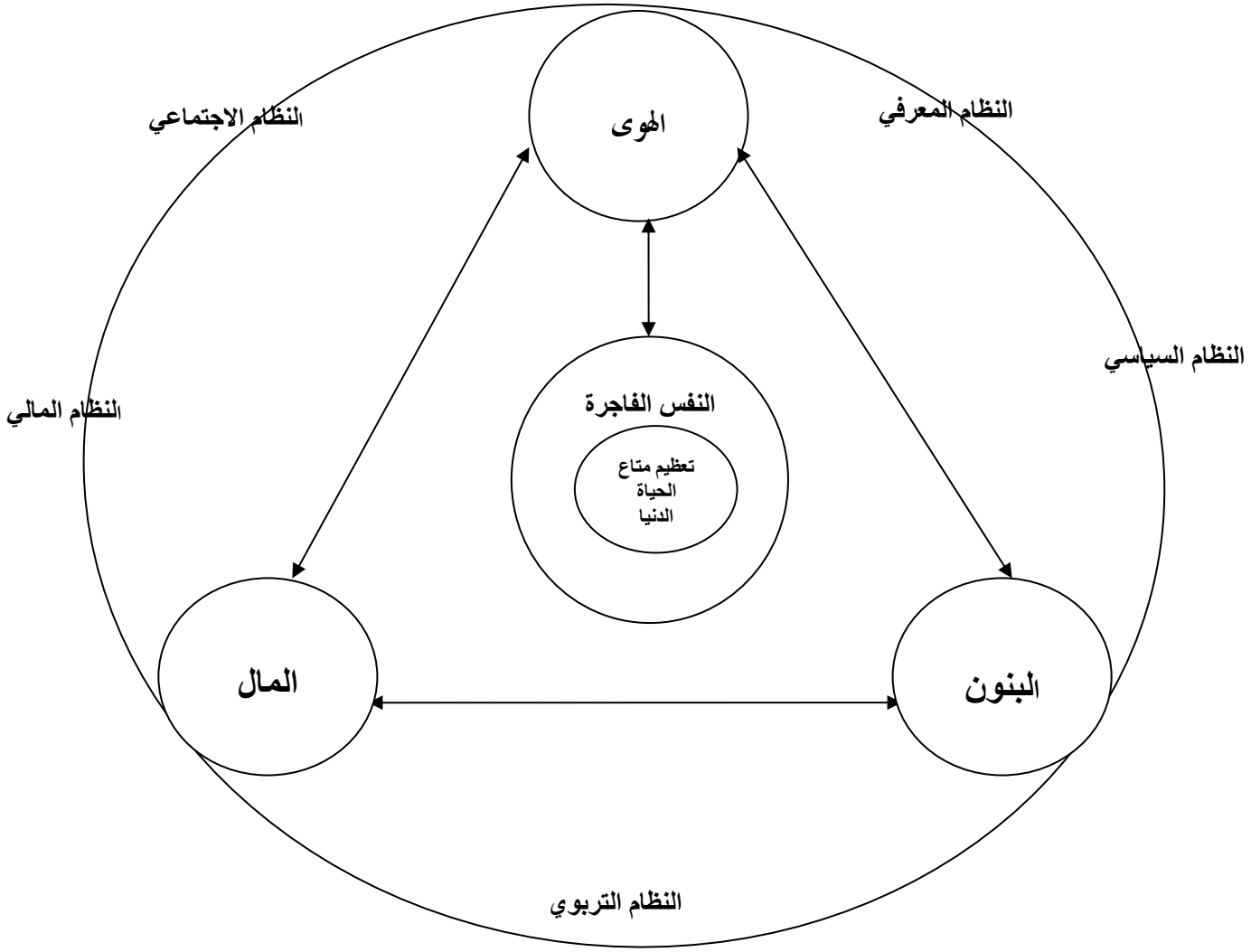

شكل (4)

نظام الواقع الاجتماعي

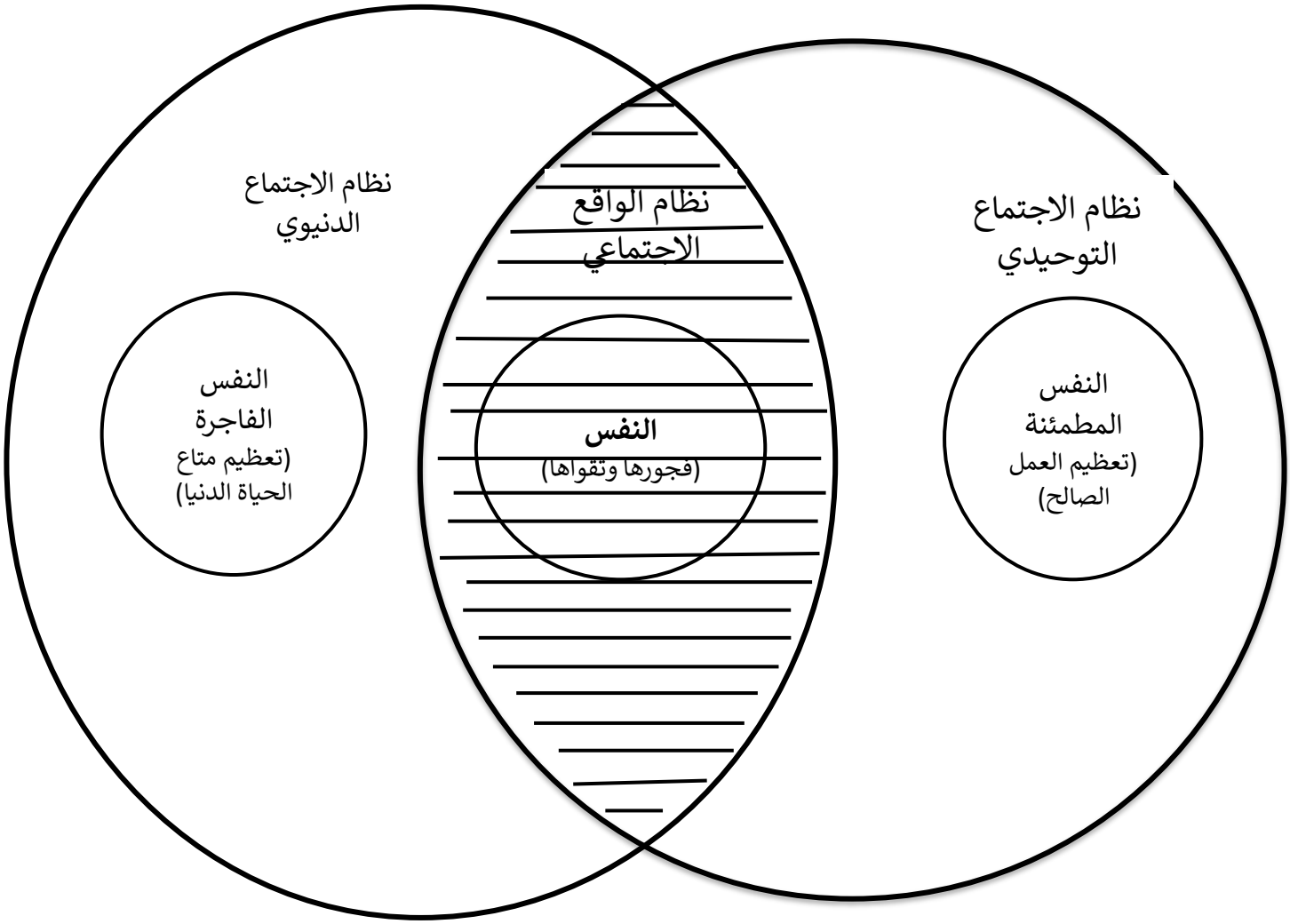

الشكل (2) يجسّم رؤية عالم الاجتماع التوحيدي، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراته في إطار نظامه الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل (3) رؤية عالم الاجتماع الدنيوي. ومن معطيات الرؤية التوحيدية لعالم الاجتماع الإنساني، حيث جميع الأعمال صالحة، أي خالصة لله نية، ووفق الأحكام الشرعية عملا، تأتي الأحكام الشرعية (أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية لعالم الاجتماع الإنساني، حيث جميع الأعمال غير صالحة بالمعنى أعلاه، تأتي الأحكام الشرعية (لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة، لأن المباح كما يقول الشاطبي في موافقاته هو مباح بالجزء خاصة، أما بالكل

فهو إما مطلوب الفعل لأنه خادم لواجب أو مندوب، أو مطلوب الترك لأنه خادم لحرام، أو مكروه. هذا يعني أن الشريعة الإسلامية (الدين المثال) تتأسس مقاصدها وأحكامها على معطيات رؤيتي العالم التوحيدية والدنيوية، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على الواقع الاجتماعي الإسلامي، أفرادا ومجتمع. ومن هنا أيضا نفهم حديث علماء مقاصد الشريعة عن الحفظ من جانبي الوجود والعدم.

إن جوهر رؤية عالم الاجتماع التوحيدي هو الدالة التوحيدية (دالة الإيمان)، فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته، وتشكل بمجموع متغيراتها نظاما متفاعلا من حيث أن جميع المتغيرات هي متغيرات داخلية وليست خارجية بالنسبة للنظام، لكنه ليس بنظام مغلق، بل هو مفتوح على تأثيرات نظام الاجتماع الدنيوي. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك "عقلاني" أيضا.

المسلم الراشد، رجل كان أو امرأة، الساعي في جلب مصالحه ودفع المفاسد عن نفسه، في العاجل والآجل، هو الوحدة التحليلية الأساسية في رؤيتنا التوحيدية الكلية هذه. فهو قد خُلق في هذه الدنيا فرداً، وكُلّف فرداً، ويخرج منها فرداً، ويبعث يوم القيامة فرداً، ويحاسب عند ربه فرداً. هذا المؤمن الراشد تثبت في حقه جميع الصفات التي أثبتها له القرآن الكريم، ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) ﴾ (الحجرات)؛ ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) ﴾(الجن).

الأعمال الصالحة المعتبرة في رؤية العالم التوحيدية هذه هي تلك التي تنجم عن الفعل والتفاعل الاجتماعي المولّد للظاهرة الاجتماعية التوحيدية، والذي يتم بين المتغيرات الضرورية الخمسة: "الإيمان"، "النفس"، "العلم"، "المال"، "البنون". هذا التفاعل عليه مدار المصالح المعتبرة التي بها قوام الحياة في الدنيا، والفلاح في الآخرة، فهي الدافع الحقيقي الذي يدفع كل مؤمن للعمل. والأعمال الصالحة الأخرى في فضاء العمل الاجتماعي إن هي إلا متمم للأصل المعتبر، وتكون أهمية المصالح التي فيها بمقدار أهمية دورها في تحصيل المصالح الناجمة عن التفاعل الأوّلي أعلاه. الضرورات الحيوية (الجوع، العطش، العري، الإضحاء، العنت الجنسي) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يقصدها المؤمن شكرا، والفتنة فيهما، بلاءً من الله تعالى، فيتجنبها المؤمن رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري، اجتماعي وطبيعي، لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً، أو جزئيا، لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ، والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾ (إبراهيم)، وهذا تحقيق لسنة الشكر الاجتماعية.

إن جوهر رؤية العالم الدنيوية هو الدالة الدنيوية (دالة المتاع الدنيوي) التي تعبر بمتغيراتها المتفاعلة عن علاقة بين ناتج ومدخلاته، فهي أيضا نظام متفاعل، وجميع متغيراته داخلية، ومفتوح على تأثيرات النظام التوحيدي. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا، ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة "عقلاني".

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، شريعة متبعة، ودينا مقاما، هو التجلّي والتمظهر التاريخي الأتم لرؤية العالم التوحيدية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. الرأسمالية الغربية المعاصرة، في رأي الباحث، هي التمظهر التاريخي الأتم لرؤية العالم الدنيوية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن رؤية القرآن للعالم أعلاه، لا سيما عالم الاجتماع الإنساني، يمكن أن تمثل "برنامج بحث علمي"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التمظهرات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات، وفرضيات، ونماذج تفسيرية، وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان. ذلك لأننا نظن أننا أثبتنا، بفضل الله تعالى، وباتباع منهج علمي صارم (الاستقراء، الاستنباط، التجريد)، تدبرا في القرآن الكريم، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدا تنوع تمظهراتها اللامتناهي في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها، من حيث العلة الظاهرة، إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل، أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها **"خطة الخلق العامة"**، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون، المتفاعلة في إطار سنن الاجتماع الإنساني كما عرفناها سابقا. والسبب في قدرة هذه المتغيرات المحدودة على إنتاج هذا التنوع اللامحدود في التمظهرات الاجتماعية يرجع إلى الخاصية الفريدة للنفس البشرية من حيث تميّز كل نفس عن غيرها من الأنفس، فليست هناك نفسان تتطابقان في خصائصهما، بل كل نفس تمثل بصمة خاصة بصاحبها، وتصبغ كل فعل يفعله بصبغتها الفريدة. لذلك إذا كان لدينا مليار شخص، مثلا، متفاعلين في الزمان والمكان فهذا يعني أن لدينا مليار متغير "نفس" تصبغ كل واحدة منها بقية المتغيرات الستة بصبغتها، مما يعني أن لدينا عمليا سبعة مليار متغير تتفاعل مع بعضها في الزمان والمكان.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" لاستحضار سنن الاجتماع الإنساني،[7] وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من علوم الاجتماع الإنساني الإسلامية ومناهجها للعلم بكيف تمظهرت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار **"خطة الخلق العامة"**، بحيث نتج عن ذلك التمظهر والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات، والفعل الإلهي المصدق والمهيمن على ذلك التفاعل، الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة.

---

[7] - *" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".*

إنّ "خطة الخلق العامة"، على المستوى الوجودي والمعرفي، هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. وهي على الصعيد الوجودي تدبير إلهي مُحْكم خرج من مشكاة العلم الإلهي قضاءً إلى مجال التحقق الفعلي في الزمان والمكان قدرا، وهي السبب في خلق السماوات والأرض: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾ (هود). وهي تتكشّف لحظة بلحظة منذ بداية خلق الكون إلى قيام الساعة، فليست هناك لحظة واحدة يكون فيها الكون على حالته التي كان عليها قبلها. والله تعالى هو القائم علي هذه الخطة يدبّر أمرها، وهو سبحانه الضامن لتحققها قدرا كما قضاها علما، ويصدّق القرآن الكريم ذلك في آيات بينات: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) ﴾ (يونس)؛ ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) ﴾ (الأنعام)؛ ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)﴾ (الرعد)؛ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) ﴾ (الرحمن)، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) ﴾ (البقرة)؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) ﴾ (الحج)؛ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255) ﴾ (البقرة).

لذلك فإن البحث العلمي في التمظهرات التاريخية ل "خطة الخلق العامة" سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتحيزة في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل سنن الله الاجتماعية بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ٥٣﴾ (فصلت).

3- أصول الاجتماع التوحيدي وأصول المقاصد الشرعية

بينت الرؤية القرآنية في أصول الاجتماع الإنساني أن هذا الاجتماع ينجم عن التفاعل بين سبع متغيرات، هي: "الإيمان بالله"؛ "المتاع الدنيوي"؛ "النفس"؛ "العلم"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون". النظام الاجتماعي التوحيدي الخالص، الذي يدخل في السلم كافة، وتمثله رؤية العالم التوحيدية في يمين الرسم رقم (1)، ينجم عن التفاعل بين خمس متغيرات من المتغيرات السبعة، وهي: (الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، المال، البنون)، ويحكمه مبدأ تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا. النظام الاجتماعي الدنيوي الخالص، الذي يخرج من السلم كافة، وتمثله رؤية العالم الدنيوية في أقصى شمال الرسم رقم (1)، ينجم عن التفاعل بين خمس متغيرات من المتغيرات السبعة، وهي: (المتاع الدنيوي، النفس الفاجرة، الهوى، المال، البنون)، ويحكمه مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا. أما نظام الواقع الاجتماعي، الذي يخلط الناس فيه عملا صالحا وآخر سيئا، ويمثله نموذج التخليط في وسط الرسم رقم (1)، فينشأ من التفاعل

بين جميع المتغيرات السبعة، ويقترب، أو يبتعد عن النظام الاجتماعي التوحيدي الخالص بمقدار قوة أثر متغيري "المتاع الدنيوي" و"الهوى" في التفاعل. ونلاحظ أن هذا التفاعل السالب من قِبَل هذين المتغيرين، الذي قد يُزيل، أو يهدد بزوال مجتمع التوحيد، قد يأتي من داخل مجتمع التوحيد نفسه عندما يغلب عليه، أفرادا وجماعة، اتباع "الهوى" وتعظيم "متاع الحياة الدنيا". وقد يأتي التهديد من الخارج، من المجتمع الدنيوي المغاير والمجاور مكانا وزمانا، المحكوم أصلا باتباع "الهوى" وتعظيم "متاع الحياة الدنيا". إذن نقرر النتيجة الهامة الآتية:

النظام الاجتماعي التوحيدي الخالص يحفظ من جانب الوجود بقوة التفاعل بين أصوله الخمسة: (الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، المال، البنون)، ويحفظ من جانب العدم بحماية هذا التفاعل من التأثير السالب لمتغيري "المتاع الدنيوي" و"الهوى".

سوف يتبين لنا أدناه أن مقاصد الشريعة الإسلامية التي قررها الأصوليون تدور حول حفظ هذا التفاعل، وحفظ أصوله المولدة له من جانب الوجود ومن جانب العدم، وأن الفعل والتفاعل الاجتماعي المنضبط بأحكامها الشرعية هو وسيلتها لتحقيق تلك المقاصد. يقول الريسوني:[8]

"اتفقت كلمة من كتبوا في مقاصد الشريعة الإسلامية قديماً وحديثاً على أن الشارع سبحانه قاصد بشريعته تحقيق مصالح العباد، ودفع الضرر والفساد عنهم في العاجل والآجل، فكل نص نزل، وكل حكم شرع قصد به تحقيق مصلحة، أو دفع مفسدة. ويُعرّف العز بن عبد السلام المصلحة والمفسدة فيقول: "المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها والأفراح وأسبابها. والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها والغموم وأسبابها. وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية. وحقيقة المصلحة أنها كل لذة ومتعة جسمية كانت أو نفسية أو عقلية أو روحية، وحقيقة المفسدة هي كل ألم وعذاب جسمياً كان أو نفسياً أو عقلياً أو روحياً". وينص الإمام الشاطبي على أن المصالح الحقيقية هي التي تؤدي إلى إقامة الحياة لا إلى هدمها، وإلى ربح الحياة الأخرى والفوز فيها، فيقرر: "المصالح المجتلبة والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية... فالشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من أهوائهم حتى يكونوا عبادا لله. وهذا المعنى إذا ثبت، لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71)﴾ (المؤمنون). ومن هنا جاء الشرع بوضع حدود وقيود على تحصيل مختلف المصالح والاستمتاع بها، لأن الإنسان باندفاعه وقصر نظره قد يحرص على مصلحة وفيها مفاسد، أو فيها تفويت مصالح أهم منها. وقد يفر من مفسدة قريبة فيقع فيما هو شر منها. وقد يطلب الراحة العاجلة فيجلب على نفسه – أو على غيره – عناءً طويلاً".

تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام، ضرورية، حاجية، وتحسينية.

1/ المقاصد الضرورية

هي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، ويترتب على فقدانها اختلال وفساد كبير في الدنيا والآخرة. وبقدر ما يكون من فقدانها بقدر ما يكون من الفساد والتعطل في نظام الحياة. "*والمقاصد الضرورية، أو المصالح الضرورية، ثبت بالاستقراء أنها خمسة، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العقل، وهي التي جاء حفظها في كل ملة* "[9].

2/ المقاصد الحاجية

---

[8]- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي؛ أحمد الريسوني؛ إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1992م- ص 257).

[9] - نفس المرجع (ص 146).

هي المصالح التي يتحقق بها رفع الضيق والحرج عن حياة المكلفين والتوسعة فيها.

3/ المقاصد التحسينية

هي المصالح التي لا ترقى أهميتها إلى مستوى المرتبتين السابقتين، وإنما شأنها أن تتمّم وتحسن تحصيلهما، ويجمع ذلك محاسن العادات ومكارم الأخلاق والآداب.

حفظ الشريعة للمصالح الضرورية وغيرها يتم على وجهين يكمل أحدهما الآخر، وهما:

1- حفظها من جانب الوجود، أي بشرع ما يحقق وجودها وتثبيتها ويرعاه.

2- حفظها من جانب العدم، أي بإبعاد ما يؤدي إلى إزالتها، أو إفسادها، أو تعطيلها، سواء كان واقعاً، أو متوقعاً.

قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل، موافقاً لقصده في التشريع. فإذا كانت الشريعة موضوعة لمصالح العباد فالمطلوب من المكلف أن يجرى على ذلك في أفعاله. ولما كان قصد الشارع المحافظة على الضروريات وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينيات، وهو عين ما كلف به العبد، فلا بد أن يكون مطلوباً بالقصد إلى ذلك، لأن الأعمال بالنيات. ثم لما كان الإنسان مستخلفاً عن الله – في نفسه وأهله وماله وكلِّ ما وضع تحت يده – كان المطلوب منه أن يكون قائماً مقام من استخلفه يجري أحكامه ومقاصده مجاريها".أه.

مقاصد الشريعة الإسلامية تتأسس أصولها الكلية على الأصول الكلية للاجتماع التوحيدي التي ذكرت سابقا (الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون)، والتفاعل بينها (مجتمع التوحيد). وهذه الكليات المقصدية هى: حفظ الإيمان بالله، حفظ النفس، حفظ العلم التوحيدي(العقل)، حفظ المال، حفظ البنين(النسل). هذا على مستوى الفرد المسلم، أما على المستوى الجمعي فإن الأصل هو حفظ مجتمع التوحيد (الدين المقام). ويتم هذا الحفظ على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني. ويتسع مفهوم الحفظ ليعني الإيجاد ابتداءً ثم النمو والتنمية المؤدية إلى الزيادة، أو المانعة من النقصان. ويمكن تلخيص حفظ هذه الكليات بالشكل الذي يبرز علاقة التفاعل بينها في إطارنا النظري أعلاه فيما يلي من أفكار.

1- حفظ الإيمان بالله تعالى على الدوام

ويقصد به، من جانب الوجود، زيادة إيمان من آمن، ودعوة من لم يؤمن إلى الإيمان. ويقصد به، من جانب العدم، حماية إيمان من آمن مما يزيله، أو يهدد بزواله، أو نقصانه. ويتم حفظ الإيمان بحفظ مدخلاته الضرورية وهي: النفس، العلم التوحيدي، المال، البنون، وحفظ ميزان التفاعل بينها.

2- حفظ النفس على الدوام

ويقصد بالنفس هنا كل الإنسان في ثنائية تركيبته المادية والمعنوية. وتحفظ النفس، من جانب الوجود، بتوفير حاجاتها الحيوية من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح، وبتوفير حاجاتها المعنوية من العلم التوحيدي (المحقق للإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض)، ومن التربية التي تزكيها من ملهمات الفجور، وتحققها بملهمات التقوى. وتحفظ النفس، من جانب العدم، بحمايتها مما يؤدي إلى فسادها الحيوي، أو يهدد بذلك كالقتل والفقر والمرض...إلخ، وبحمايتها مما يؤدي أو يهدد بفسادها المعنوي كالجهل، وتفشي الفحشاء والمنكر باتباع الهوى، وتعظيم متاع الحياة الدنيا.

3- حفظ العلم التوحيدي على الدوام

ويقصد بالعلم التوحيدي ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب، ويحقق العمل الصالح في الأرض، ويتأتى من الدمج بين علم الوحي وعلم الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي، ونطلق عليه اصطلاحاً "العلم التوحيدي" لأنه يتوحد في ذاته، ثم يوحّد الحياة عبادة لله الواحد. ويحفظ العلم التوحيدي، من جانب الوجود، بتقوى الله وبالبحث العلمي في مصدريه، الوحي والكون، وبتطبيق حقائقه، أولا؛ كدليل إيمان بالله الواحد، ثم، ثانيا؛ في التعرف على الكون الطبيعي والاجتماعي من أجل العمران، وإقامة الوزن بالقسط وعدم إخسار الميزان. ويحفظ، من جانب العدم، بحمايته مما يؤدي أو يهدد بزواله مثل اتباع الهوى والشهوات من قبل العلماء، وغياب مقومات البحث العلمي، وعدم العمل بالعلم في الواقع الاجتماعي. والمقصود بالحفظ حقيقة هو هذا العلم التوحيدي، بينما "العقل" المذكور تقليديا في مقاصد الشريعة هو وسيلة تحصيل هذا العلم، لذلك فإن حفظه هو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويطرد هذا الحكم على كل الوسائل الضرورية لحفظ هذه المقاصد الضرورية.

4- حفظ المال على الدوام

ينقسم مفهوم المال في القرآن الكريم إلى قسمين: القسم الأول، هو البعد البيئي ويتعلق بالموارد الطبيعية والبيئة الداعمة لوجودها كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) ﴾ (عبس)؛ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) ﴾ (البقرة).

القسم الثاني من المال، وهو البعد الاقتصادي، يتعلق بما عملته يد الإنسان في الموارد الطبيعية من قيمة مضافة حولتها إلى سلع نافعة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) ﴾ (يس)؛ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) ﴾ (آل عمران)، إشارة إلى اللذّات التي يحصلها الإنسان بعمله في تلك الموارد الطبيعية.

يحفظ المال في بعده البيئي، من جانب الوجود، بالنظر إلى الموارد الطبيعية باعتبارها رأس المال الطبيعي الذي يجب الحفاظ عليه بتنميته، وإصلاح ما أفسد الإنسان منه. ويحفظ من جانب العدم بأن يأكل الناس من عائدات استثماره، لا من أصله، بحيث لا يستغل من الموارد المتجددة إلا بمقدار قدرتها على تجديد نفسها، ولا يستغل من الموارد غير المتجددة إلا بمقدار ما يمكن تعويضه بالاستثمار في بدائل لها.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب الوجود، بإنشاء نظام اقتصادي يتأسس على مبادئ العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالإنتاج للطيبات في جانب العرض، وبتوظيف ما ينتج، في جانب الطلب، إما للاستهلاك المباشر، الخاص منه والعام، وإما للاستثمار وزيادة رأس المال، الخاص منه والعام أيضا، وبالالتزام بالأحكام الشرعية الضابطة للمعاملات الاقتصادية في كل الأسواق. وما ينتج للاستهلاك الخاص ينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ الإيمان والنفس والعلم والبنين من المال، على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني، أما ما ينتج لاستهلاك القطاع العام فينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ مجتمع التوحيد، على المستوى الضروري

والحاجي والتحسيني كذلك. وينبغي أن تستغل الموارد الطبيعية بصورة "فعالة"، و"مثلى" في الإنتاج بحيث تلبي شروط حفظ البيئة الطبيعية المذكورة آنفا.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب العدم، بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي، سواء في مجال الإنتاج، أو الاستثمار، أو الاستهلاك، أو في الأسواق.

5- حفظ البنين على الدوام

مفهوم البنين في القرآن الكريم، كما مفاهيم المال والنفس والعلم، مفهوم جامع يعبر عن علاقات كلية وتفصيلية تحيط بحقله الدلالي، فعلى المستوى الكلي يعبر المفهوم عن مطلق العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، وما ينجم عن هذه العلاقة من أبناء، باعتبارهما شهوة تماثل شهوات القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث. أما على المستوى التفصيلي فتندرج تحت المفهوم علاقات زواج شرعية بين الرجل والمرأة، وعلاقات زنا محرمة، وعلاقات والدين وأبناء، وبنات وبنين وحفدة...إلخ.

ويمكن توليد مفاهيم قرآنية عملية من مفهوم البنين نؤسس عليها مبدأ الحفظ، أحدها مفهوم كمّي وهو مفهوم الناس من حيث العدد، ويتأتى من العلاقة الجنسية بالتوالد والتكاثر. والمفاهيم الأخرى مفاهيم نوعية هي مفهوم الشعب، ومفهوم القبيلة، ومفهوم الأمة، ويتأتى من العلاقات الاجتماعية بين الناس، بدءاً من العلاقة الأسرية وانتهاءً بالعلاقات القومية والأممية. ويعبر مفهوم الشعب ومفهوم القبيلة عن علاقات تتأسس على آصرة العصبية للرحم، أو الجنس، أو اللسان، بينما يتأسس مفهوم الأمة على آصرة الولاء للعقيدة والفكرة الجامعة المتسامية فوق الأواصر العنصرية. ويجمع ذلك كله قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ (الحجرات). وتشير الآية إلى أن الآصرة الإثنية الحكمة منها هو التعارف، أما معيار التفاضل والكرامة فمحلّه آصرة العقيدة: (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم).

يحفظ البنون، من حيث العدد، من جانب الوجود بالزواج الشرعي بين الرجل والمرأة، والتناسل والتكاثر، وبالالتزام بالضوابط الشرعية في الأفعال والأعمال المتعلقة بهذه العلاقة. ويحفظ البنون من جانب العدم بالابتعاد عن الزنى وعن إجهاض ووأد الأبناء، وبالامتناع عن التبتل على المستوى الكلّي. ويدخل حفظ النفس من جانب الوجود ومن جانب العدم، كما بينا سابقاً، كعامل أساس في حفظ البنين في هذا البعد الكمّي للناس.

يحفظ البنون، من حيث الاجتماع الإنساني، من جانب الوجود بتأسيس نظام اجتماعي يقوم على العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ويحفظ من جانب العدم بالانتهاء والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. ومفاهيم العدل، الإحسان، إيتاء ذي القربى، الفحشاء، المنكر، والبغي هي مفاهيم قرآنية كلية جامعة تتسع لكل ما من شأنه صلاح النظام الاجتماعي.

6- حفظ مجتمع التوحيد على الدوام

النظام الاجتماعي التوحيدي (المثال) يتأسس ابتداءً على المتغيرات الكلية الضرورية، وهي: "الإيمان"، "النفس المطمئنة"، "العلم التوحيدي"، "المال"، "البنون"، وعلى التفاعل بينها، ثم على بقية التفاعلات الجزئية المنبسطة في كل تفاصيل الظاهرة الاجتماعية التوحيدية. ولأن هذه المتغيرات الخمسة هي الأجزاء التي يتكون منها ومن تفاعلها فيما بينها النظام الاجتماعي التوحيدي فقد أصبحت بذلك أصل المصالح الشرعية؛ الضرورية والحاجية والتحسينية، فاستحقت أن تكون الكليات الخمس الشهيرة التي تتأسس عليها مقاصد الشريعة الإسلامية. ولكن التفاعل بين هذه المتغيرات في إطار الجماعة من المؤمنين، في الزمان والمكان، يقتضي

قيام مجتمع التوحيد بترتيباته ونظمه المعرفية، العقدية، الاتصالية، التربوية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية والثقافية فأضحى بذلك حفظ النظام الاجتماعي ككل وسيلة ضرورية لحفظ أجزائه المكونة له. إن الدين، إن كان طرفه الأعلى هو الشريعة الموحاة (الدين المتّبع) الذي تكفّل الله تعالى بحفظه، فإن الدين في طرفه الأدنى (الدين المقام) هوالفعل والتفاعل الاجتماعي الحي بين المؤمنين اتباعا للشريعة الموحاة من أجل إقامة الدين (مجتمع التوحيد)، ووقع ذلك في الحياة العملية، أي إنه جملة كسب المؤمنين من التديّن، علما وإيمانا وعملا صالحا في زينة الحياة الدنيا، أفراداً وجماعة. إذن "الدين" المعني بالحفظ في مقاصد الشريعة الإسلامية هو مجتمع التوحيد الخالص، وحفظه لن يكون فقط بجهاد الأعداء من الخارج، أو قتل المرتدين كما في الأدبيات التراثية للمقاصد، ولكن الحفظ الأهم هو ذلك المعني بحظ ميزان التفاعل بين المتغيرات المنتجة بتفاعلها للمجتمع التوحيدي، بحيث يكون المجتمع على صراط مستقيم على الدوام. وهذا الميزان الاجتماعي الذي أمر الله تعالى عباده أن يقيموه بالقسط ولا يخسروه يبيّن مكوناته قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) ﴾ (النحل).

إن جميع التفاعلات الاجتماعية، سواء على مستوى الفرد، أو الجماعة المؤدية، أو المهددة لحفظ الكليات المقاصدية أعلاه، العامل الحاسم فيها هو تفاعل النفس بفجورها وتقواها مع متغيري المال والبنين في إطار مجتمعي كما بينا ذلك في "خطة الخلق العامة" سابقا. إذن لدينا خمسة أصول مقاصدية يتعلق حفظها بالفرد المؤمن ابتداءً وهي (الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون) ليتحقق توحيده وتطيب حياته، ثم وسيلة ضرورية لهذا الحفظ تتجاوز الفرد إلى الجماعة، وهو مجتمع التوحيد (الدين المقام). إنّ المتغيرات الخمسة، وإن كانت هي المكونة بتفاعلها للنظام الاجتماعي ابتداءً إلا إنه لا يتكّون من مجموع الفعل والتفاعل الاجتماعي الناجم عنها، بل هو أكبر منه، فاستحق أن يكون حفظه ضروريا لحفظها، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. مثل هذا كمثل الجسد له أعضاء كثيرة متفاعلة ومعتمدة على بعضها البعض، وكل منها يؤدي وظيفة بعينها، ولكن يجمعها كلها الجسد الذي هو أكبر من مجموعها، ولو لم يحفظ في وحدته، لاختل نظامها وانفرط عقدها.

المتغيرات الضرورية المتفاعلة على المستوى الفردي الجزئي، يقابلها على مستوى النظام الاجتماعي الكلّي نظم جزئية (المعرفي، العقدي، النفسي، المالي، الاجتماعي) تتفاعل داخلياً وفيما بينها، ومع نظم جزئية أخرى مكملة لها، كالنظام السياسي، النظام الاتصالي والنظام الثقافي لتشكل في مجموع علاقاتها النظام الأتم لمجتمع التوحيد. ولأن من المستحيل تحليل جميع هذه التفاعلات الكليّة في وقت واحد فإن المنهجية الأوفق هي تحليل العلاقات الداخلية لكل نظام جزئي منفرداً، والتأكد من أنه يعمل وفق النظام التوحيدي الأشمل. ويلي ذلك تحليل العلاقات البينية للنظم الجزئية، ثم إن تيسرت مناهج وأدوات التحليل أن ينظر في العلاقات البينية مجتمعة في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي الشامل.

إن الذي يضمن لنا التناغم بين جميع النظم الاجتماعية الجزئية الضرورية المكونة للنظام الاجتماعي التوحيدي الكلي هو تأسيسها في جميع تفاصيلها على مقاصد الشارع التي هي مقاصد المؤمن الراشد، ويجمعها مبدأ تعظيم "الإيمان" من خلال تعظيم العمل الصالح الناجم عن التفاعل بين المتغيرات التي هي مدخلات الإيمان (النفس، العلم، المال، البنون). إن الشريعة وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، ولكن العباد خلقوا لحكمة كلية هي عبادة الله التي أصلها علم، وإيمان، وعمل صالح مادته الابتدائية زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، وثمرته الشكر على تلك النعم. فالشكر هو القيمة الأخلاقية العملية والمقصد الأعظم الذي يتجلى من خلاله إيمان المؤمن في فضاء العمل الصالح، وسنة الشكر هي القانون الكلي الضامن لحفظ نظام

المجتمع التوحيدي واستدامته. وتحت قانون الشكر تندرج جميع القيم الأخلاقية العملية الأخرى مثل الصبر والعدل والإحسان والصدق والأمانة...الخ، فهي تعمل في النظام الاجتماعي لينتهي أمره إلى حال من الشكر يزيد النعمة ويديمها (الحياة الطيبة). وإذا كان الشكر ينطوي على علمٍ وإيمان وعمل، فإن الجانب العملي يعني أن ينبني العمل مطلقا على مقصد تحقق الحكمة الإلهية من النعمة موضوع الشكر. فلابد إذن من أن تطرد حقيقة الشكر في جميع النظم الجزئية فتوحد بينها.

إن الله تعالى قابل بين الإيمان والكفر، وبين الشكر والكفر، فعلمنا أن الشكر هو الإيمان العملي: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) ﴾ (الإنسان)؛ ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147) (النساء)؛ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) ﴾ (الزمر)؛ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾ (إبراهيم). ويطرد هذا المعنى في جميع النظم الجزئية المقابلة للمتغيرات الضرورية، فالله تعالى يربط بين العلم وطلب الشكر: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) ﴾ (النحل). وربط بين نعمة المال وطلب الشكر: ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) ﴾ (إبراهيم)؛ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) ﴾ (الأعراف)؛ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) (سبأ). وربط كذلك بين البنين والشكر: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) ﴾ (الأعراف). بل إن إبليس أخذ على نفسه عهداً أمام الله تعالى منذ الخلق الأول للإنسان أن يضل عباده في زينة الحياة الدنيا فلا يجد أكثرهم شاكرين: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) ﴾ (الإسراء)؛ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) ﴾ (الأعراف).

وإذا انخرم قانون الشكر على المستوى الفردي، أو الجمعي، فإن نقيضه يسود، وفي هذه الحال قد يُبتلى المؤمن بكل، أو بعض العقوبات كالجوع، والخوف، ونقص من الأموال، والأنفس، والثمرات، والمطلوب تعبداً أن يتجلى الإيمان في القيمة الأخلاقية العملية المكملة للشكر وهي الصبر. فالمؤمن الراشد يتقلب على الدوام بين الشكر والصبر في بلاء زينة الحياة الدنيا. لكن الأصل أن يظل في حال من الشكر على نعم الله حرصاً على استدامتها، وإن دخل في ابتلاء الصبر يعجل بالخروج منه بسؤال الله العافية، وبأخذه بالأسباب الرافعة للبلاء. وصبر المؤمن على البلاء هو توفيق من الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) ﴾ (النحل)، فكان نعمة تستحق الشكر، فرجع الأمر كله إلى الشكر كما قال الإمام ابن قيم الجوزية في "مدارج السالكين". إن مجتمع المؤمنين الراشدين يقوم التنافس فيه على العمل الصالح، والمسارعة إلى الخيرات، والتسابق إلى مغفرة الله، والطمع في التفاضل في درجات الآخرة، فإن كان الله تعالى قد فضّل بعضهم على بعض في رزق الدنيا، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا. وهكذا يتمدد المدى الزمني الذي يدخل في اعتبار المؤمن عند اتخاذ القرار، والترجيح بين الأعمال الصالحة عند التزاحم، ليشمل كلفة وفائدة عمله في الدار الآخرة. إن هذا الاعتبار يؤدي إلى نتائج في التحليل هي نقيض تلك التي يثْبتها النظام الدنيوي حيث المصالح العاجلة دائماً مقدمة على المصالح الآجلة. لقد أثبتت النظريات الغربية في مجال الفعل الاجتماعي أنه كلما امتد المدى الزمني في التحليل كلما تحولت النتائج لصالح التعاون بين الناس بدلاً عن التشاكس، لأنه أجلب لمصالح الجميع، وكلما أصبحت المصالح الآجلة أعظم من

العاجلة، والتخطيط الاستراتيجي أجدى في تحصيلها. ونحن نجد أن فضاء العمل الصالح في نظام الاجتماع التوحيدي هو فضاء التعاون على البر والتقوى.

إن مبدأ المسلم الراشد، المعظّم للصالحات بفعله في زينة الحياة الدنيا، كأداة تحليلية تؤيده الكثير من الآيات، منها: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) ﴾ (سبأ)؛ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)﴾ (التغابن)؛ ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) ﴾ (المؤمنون)؛ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) ﴾ (البقرة)؛ ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)﴾ (فاطر)؛ ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) (المطففين).

لدينا، إذن، أربعة نظم جزئية أساسية ينبغي تحليلها لبسط فضاء العمل الصالح فيها من خلال تتبع مقاصد الشارع في جميع تفاصيلها، ثم تحديد العمل الراشد المناسب لتحقيق تلك المقاصد. متغير العلم يعبر عن النظام المعرفي، ومتغير النفس يعبر عن النظام النفسي، ومتغير المال يعبر عن النظام المالي، ومتغير البنين يعبر عن النظام الاجتماعي. لكن متغير المال في القرآن الكريم يعبر عن نظام يمكن تقسيمه إلى نظامين منفصلين بصورة تسمح بتناول كلٍ منهما بدراسة مستقلة ثم الجمع بينهما، وهما: الموارد الطبيعية (القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، الخيل المسومة، الأنعام، الحرث)، والبيئة الداعمة لوجودها عموماً، ونطلق على هذا الجزء النظام البيئي؛ ثم النظام الاقتصادي ممثلاً في التوظيف البشري للموارد الطبيعية (وما عملته أيديهم). لكن عندما يتم الفعل والتفاعل الاجتماعي في إطار هذه المتغيرات فإن نظما اجتماعية أخرى تنبثق ضرورة تقتضيها فعالية النظام الاجتماعي الأشمل، منها النظام الاتصالي، النظام السياسي، النظام الثقافي، والنظام التربوي. إذاً نحن بإزاء خمسة نظم جزئية، أولية وضرورية، هي: النظام المعرفي، النظام النفسي، النظام البيئي، النظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، وهناك نظم جزئية ضرورية مكملة لها هي النظام التربوي، النظام الاتصالي، النظام الثقافي والنظام السياسي. قد يطرأ سؤال هنا عن متغير الإيمان وما إذا كان يستقل بنظامه العقدي الجزئي كبقية المتغيرات، والإجابة هي أننا افترضنا الإيمان دالة في بقية المتغيرات (النفس، العلم، المال، البنون)، فهو إذن لا يستقل عنها بنظام، بل تغيراته تفسّرها تفاعلات وتغيرات تلك المتغيرات. فالحفظ التوحيدي لهذه المتغيرات على الدوام شرط ضروري وكاف لحفظ الإيمان على الدوام، لكن الأمر يحتاج إلى المزيد من التمحيص والنظر العلمي.

هكذا ينبسط العمل الصالح في كافة النظم الجزئية وفي تفاعلاتها البينية وفي النظام الكلي، والمطلوب اجتهاد كثيف لإنتاج علوم في مجال السنن الإلهية الاجتماعية الحاكمة لزينة الحياة الدنيا باعتبارها مادة المقاصد، وإنتاج علوم في مجال الفعل والتفاعل الاجتماعي الراشد، باعتباره وسيلة تحقيق المقاصد، وإنتاج علوم تتعلق بدراسة النظم الاجتماعية التي تنبثق من الفعل الاجتماعي، ودراسة العلاقة بينهما. كذلك لابد من إنتاج علوم تتعلق بالنظم الوجودية والمعرفية والمنهجية، والمصادر المعرفية التي تتأسس عليها هذه النظم. وبالطبع مواصلة

الاجتهاد الفقهي في مجال الأحكام الشرعية باعتبارها العلم الذي يبين حكم الشارع في الأفعال المختلفة، سواء كانت أحكام تكليف، أو أحكام وضع.

دروس مستفادة من أجل إقامة الدين

الدرس الأول، هو أن حقيقة الدين المقام في الواقع، من حيث الزمان والمكان، إن هي إلا هذا التفاعل بين المتغيرات السبعة المنتجة للظاهرة الإجتماعية، ومآلاته من حيث حفظ ميزان التفاعل على الصراط المستقيم، أو الانحراف به نحو سبل أخري. لذلك فإن حقيقة حفظ الدين على الدوام كأولوية في مقاصد الشريعة إن هو إلا حفظ هذا التفاعل ليكون على صراط الله المستقيم، وأما الدين المثال، أي الشريعة المنزلة وحيا الواجبة الاتباع، فهو محفوظ بحفظ الله له في كتابه القرآن الكريم، ولم يكل حفظه إلى أحد من الناس.

الدرس الثاني، هو أنه لا أمل في أي تقدم اجتماعي، تأسيسا على الإسلام، إلا بمعرفة هذه المتغيرات المتفاعلة، كمّا ونوعا، في الزمان والمكان، والعلم بحقيقة التفاعل الجاري بينها، والهيمنة عليه بالعلم التوحيدي، لإقامة الوزن بالقسط بين هذه المتغيرات وتفاعلها على الدوام.

الدرس الثالث، الأولوية المطلقة للعلم التوحيدي وإنتاجه، وللنفس وتزكيتها بالتربية، لأنّ هذين المتغيرين وحدهما المسؤولان عن نوع ناتج التفاعل بين المتغيرات، والاتجاه به نحو الصراط المستقيم، أو نحو السبل الأخرى.[10] فالعلم التوحيدي وحده هو الذي به نعلم حقيقة المتغيرات المنتجة للظاهرة الاجتماعية، وطبيعة التفاعل الحادث بينها، والاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه هذا التفاعل، والسياسات اللازمة لذلك. ويتطلب ذلك إنتاج نظام معرفي توحيدي يكون قادرا على توجيه جهود البحث العلمي لإنتاج علوم متخصصة تمكّن، عبر السياسات المناسبة، من الهيمنة على التفاعل المنتج للاجتماع الإنساني. وتزكية النفس، لتتحقق بأخلاق التقوى في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا، يحتاج إلى نظام تربوي يتأسس على علم التربية الذي ينتجه النظام المعرفي التوحيدي.

الدرس الرابع، هو أنه في إطار أولوية إنتاج العلم التوحيدي ينبغي أن تعطى الأولوية لإنتاج نموذج نظري للمسلم الراشد يمكّن من التنبؤ بكيف يتصرف في جميع المواقف التي تواجهه في الحياة، في الزمان والمكان، ومن ثم دراسة النظام الاجتماعي الأفعل، بمكوناته المختلفة، الذي يمكّن المسلم الراشد من أن يأتي بهذا الفعل الاجتماعي النمطي على وجهه المتوقع منه نظريا.

الدرس الخامس، هو أن جميع الخطوات السابقة لا سبيل إلى تحقيقها إلا بالاهتمام المطلق بقضية إسلام المعرفة، لا سيما تثوير الطاقات العلمية للوحي الكريم، لأنه المنشئ للنظام المعرفي التوحيدي، والمحدد للقواعد المنهجية التي تسير به نحو الكون الاجتماعي والطبيعي لإنتاج العلوم التوحيدية.

---

[10]- انظر القضايا المنهجية المتعلقة بهذا الموضوع في بحثنا: الدلالات الإصلاحية للتقابل والتفاعل بين كليات الدين الضرورية وخصائص النفس البشرية (ينشر في العدد القادم لمجلة تفكّر؛ إمام، السودان).

الدرس السادس، هو أن نظام الاجتماع الدنيوي، بحقيقته التي بينها القرآن الكريم، يشكل حضورا دائما في حياة الفرد والمجتمع المسلم، ويحدث تأثيرا قد يكون قويا، أو ضعيفا، بحسب استجابة النفس لدواعيه بمقدار تمكّن، أو ضعف الهوى فيها. ولما كانت الحضارة الغربية، المؤسسة على النظام الدنيوي هذا، قد أنتجت علوما كثيفة متعلقة به، على المستوى النظري والتطبيقي، في المجالين الطبيعي والاجتماعي، فإنّ من الحكمة الاستيعاب والدمج التام للحق الذي فيها في عملية إسلام المعرفة، ومن ثم الاستفادة القصوى من ناتج الدمج في دراسة الأثر السلبي والإيجابي الذي أحدثه ويمكن أن يحدثه هذا النظام الدنيوي في حياتنا الفردية والجمعية، وأيضا الاستفادة منه في معرفة الآخر كما يرد في النقطة التالية.

الدرس السابع، نظام الاجتماع الدنيوي المقابل للنظام الاجتماعي التوحيدي، كما بيناهما سابقا في هذا البحث، يمثل جوهر الحضارة الغربية المادية المتعولمة، وهو بحقيقته التي وردت في القرآن الكريم، وبعلومه التي أنشأها الغرب من واقع تجربته التاريخية يمثل أساسا منهجيا متينا لدراسة هذه الحضارة، وكيفية التعامل معها، والتنبؤ بمآلاتها، والحذر من السير على خطاها.

تم بحمد الله تعالى